

الفكر الديني بين التحجّر والتجديد

محمّد علي أنرشب

مقدمة:

تشكّل مجموعة نصوص القرآن وما ثبت من السنّة مرجعيّة مقدّسة للمسلم لا يعترئها التغيّر ولا التبديل، بينما الإنسان بطبيعته موجود متطورّ ومتحوّل، وحياته بتبع هذه الطبيعة متطوّرة ومتحوّلة، فكيف يمكن الجمع بين عنصري الثبات والتطوّر؟ وما هو موقف الفكر الإسلامي على مرّ التاريخ وفي عصرنا الراهن من هذه الإشكالية؟ ولماذا نجد في عصرنا الراهن بالذات إصرارا على مظاهر التحجّر، ونجد إلى جانب ذلك إصرارا على التجديد المنفلت؟

هذا ما نريد أن نلقي الضوء عليه في هذا المقال، راجين أن نتوصّل إلى مشروع يجمع بين الحفاظ على هويتنا في عالم ازدادت فيه سرعة التطوّر بشكل هائل، خاصة بعد ثورة الاتصالات.

إشكالية الثابت والمتطور

هذه الإشكالية ليست بجديدة، ولا وليدة عصر الحداثة الأخير، بل هي قديمة في التاريخ الإسلامي ظهرت تارة على شكل صراع بين الأشاعرة والمعتزلة، وتارة بين الفقهاء والعرفاء المتصوفة أو بين ما يسمّى بأصحاب الشريعة وأصحاب الطريقة، وتارة أخرى بين الأصوليين والأخباريين، واليوم تظهر في داخل الدائرة الفقهية بين دعاة التجديد في الاجتهاد وبين من يطلق عليهم أشباه المقلّدة، وبين النصوصيين وأصحاب مدرسة تطوّر الاجتهاد بمراعاة عنصري الزمان والمكان، وفي خارج الدائرة الفقهية تظهر بين أنصار الأصالة وأنصار المعاصرة، وبين دعاة القراءات المختلفة للنصوص الدينية ودعاة القراءة الواحدة... وفي اعتقادي أن مردّ كل هذه الإشكالية يرجع إلى سبب واحد هو غياب الهدف الكبير الذي رسمه الإسلام لحياة الإنسان المسلم والمجتمع المسلم. وهو هدف «الاستخلاف».

والاستخلاف يستبطن حركة مستمرة نحو تحقيق ما أراده الله للإنسان في هذه الأرض. وجميع ما تحقق في إطار الحضارة الإسلامية إنّما يعود إلى هذه الطاقة المخزونة في مفهوم «خليفة الله في الأرض» وكل المظاهر السلبية التي نشهدها على مرّ التاريخ وحتى يومنا هذا إنّما تعود إلى غياب هذا المفهوم بدرجة وأخرى.

مفهوم الاستخلاف والتطور الحضاري

الاستخلاف يتضمّن كل عناصر «الثقافة» المتحركة التي تؤدّي إلى التطور الحضاري. فهو يتضمّن:

١ - العزّة التي لا بدّ منها لكل تقدّم وتطور، عنصر العزّة يستشعره الإنسان المسلم باعتباره خليفة الله في الأرض، وباعتباره قريبا من خالق السماوات والأرض، بل إنّ هذا الخالق أقرب إليه من حبل الوريد، وإنّه على اتصال مستمرّ به في صلواته وأذكاره، بل وفي كلّ أعماله الدنيوية إذا كانت خالصة لله... هذا العنصر يشكّل طاقة بحركة هائلة عظيمة نحو التطوير والإبداع.

وهذه الحقيقة أدركها قدماء الفلاسفة أمثال أفلاطون، عندما أشار في كتاب «الجمهورية» إلى أنّ الكائن الإنساني يتكوّن من ثلاثة مركبات: جزء راغب، وجزء عاقل، وجزء يسمّيه تيموس (thymos) أو روح الحياة. وهذا الجزء الثالث هو الذي يدفع الإنسان إلى البحث عن الاعتراف بكرامته الذاتية أو بكرامة الشعب أو الأشياء والمبادئ التي يشحنها بالكرامة... واعتبر هيغل هذا التيموس محرّكا للسيرورة التاريخية بكاملها^(١).

وإذا أمعنا النظر في المعاني التي ذكرت لهذا التيموس أو روح الحياة لوجدناه هو العزّة نفسها.

(١) فوكوياما، فرانسيس، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، الترجمة العربية،

ص 28، مركز الإنماء القومي، بيروت 1993.

والتاريخ الإسلامي مشحون بصور اهتمام المسلمين أفراداً وجماعات بكرامتهم الذاتية وبكرامة المسلمين وكرامة ما يؤمنون به من مقدّسات. وهذا هو الذي جعلهم يتفضّون تجاه أي عدوان على هذه الكرامة ويستमितون من أجل الدفاع عنها، لا فقط في ساحات الوغى، بل أيضاً في ساحات العلم، سعوا لأن يثبتوا تفوّقهم في جميع العلوم، وأن يكونوا خير أمة أخرجت للناس في علومهم وخدماتهم وثقافتهم وقوتهم المادية والمعنوية.

- 2 - المثل الأعلى الكبير، فالاستخلاف يضع أمام الإنسان مفهوم رضا المستخلف وهو الله سبحانه، فتصبح رغبة الإنسان المسلم والمجتمع المسلم متّجهة نحو مثل أعلى كبير، وهذا ينقذها من البقاء في داخل إطار ذاتيتها الضيقة.

أكبر عائق أمام مسيرة الحضارة الإنسانية هو أن تتحوّل ذات الإنسان ورغباته الفردية إلى مثل أعلى، فيبقى الإنسان في إطار هذه الذات يعيش همومه اليومية، وفي مثل هذه الحالة تتحوّل حركته مهما كانت دائبة إلى مراوحة في المكان. دون أن يقطع خطوة على طريق التقدّم الإنساني.

كل المجتمعات التي قطعت أشواطاً في مضمار الحضارة الإنسانية اتّجهت إلى مثل أعلى خارج ذاتها، وقد يكون هذا المثل الأعلى محدوداً. فتتوقّف الحركة بعد استنفاد طاقات هذا المثل الأعلى، لكنّ الحركة نحو المثل الأعلى المطلق وهو الله سبحانه لا تتوقّف إلا إذا انكفأ الفرد أو الجماعة على الذات

لأسباب تاريخية أو اجتماعية أو نفسية أو اتجهوا نحو مثل عليا سرائية تتعملق في طريقهم فتجعل منهم - وهم العطشى إلى المثل الأعلى المطلق الحقّ يتجهون نحو السراب: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ...﴾⁽¹⁾.

3 - حلّ الجدل القائم في النفس الإنسانية بين المصالح الذاتية والمصالح العامة.

الحضارة الإنسانية تقوم على أساس حركة الأفراد والجماعات نحو مصالح عامة للمجتمع، وهذه الحركة تتعارض مع المصلحة الذاتية للفرد أو الأفراد، والدين في إطار مشروع الاستخلاف يحلّ هذه المشكلة حين يجعل كل خطوة على طريق المصلحة العامة تصبّ أيضاً في المصلحة الذاتية، وبذلك ينحل التعارض بين «الأنا» الذي هو نزعة متأصلة في الإنسان وبين المصلحة الاجتماعية التي يتطلّبها بناء الحضارة الإنسانية:⁽²⁾.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ

(1) انظر نظرية «المثل الأعلى» ودوره في حركة التاريخ، كتاب محاضرات في التفسير الموضوعي، محمد باقر الصدر.

(2) انظر دور الدين في حلّ مشكلة التعارض بين المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية، كتاب الإنسان المعاصر والمشكلة الاجتماعية. محمد باقر الصدر.

اللَّهُ وَلَا يَطْأُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا
إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿التوبة 120﴾.

وهكذا يرتبط الدين بحركة مستمرة نحو تحقيق أهداف
الاستخلاف التي هي أهداف الحياة، من هنا كان الدين هو
الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال 24).

ولا يمكن فصل الدين عن الحركة الحضارية، وإذا وجدت
ضعفا في هذه الحركة فإنما يعني ذلك ضعفا في حقيقة الدين،
فالمجتمع المتخلف في المضمار الحضاري بعيد عن حقيقة الدين
ولو كثرت فيه المظاهر الدينية.

من مظاهر السكون الحضاري

1 - المحافظة على الوضع القائم، وهذه حالة نفسية
تصيب كل المجتمعات الساكنة، لأنها تفقد الرؤية المستقبلية،
فتحاول أن تتشبَّثَ بالوضع القائم ظناً منها أنه يبلور كل عزتها
وكرامتها... ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ
مُقْتَدُونَ﴾، والفكر الديني المصدوم بهذه الوقفة الحضارية يبرر
هذه الأوضاع القائمة، ويحوّلها إلى دين ويجعل منها خطوطاً

حمراء لا يمكن تجاوزها، ومقدّسات لا يمكن التعرّض إليها ومناقشتها⁽¹⁾ .

2 - قد تنبثق في هذا الجوّ المتخلّف حركة تريدُ إصلاح الواقع، لكنّ القليل من هذه الحركات تستطيع أن تشدّ نظرها إلى المستقبل، فتركة هذه الحالة المتخلّفة تترك أثرها حتى على كثير من الإصلاحيين، فينهضون وأجفانهم - كما يقول مالك بن نبي - مثقلة بنوم عميق، فيبحثون عن مناهج الماضين في الإصلاح دون التفكير بالحاضر والمستقبل، وباسم الإصلاح والسلفية والعودة إلى نقاء عصر الرسالة الأول يكفّرون هذا وذاك، ويقدمون وصفات للعلاج تزيد في الطين بلة، وتعتدّ ظاهرة التخلّف، وتفوّت الفرصة على دعاة الإصلاح الحقيقيين.

3 - في ظروف التخلّف الحضاري تضمر روح الحياة في المجتمع فتصبح أعضاؤه غير مترابطة عضويا. لأنّ الترابط العضوي إنّما يكون في الجسد الحيّ الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى .

من هنا تسود حالة التمزّق في مجتمعات السكون الحضاري، ويسود الصراع العشائري، متّخذا صفة الطائفية تارة أو صفة الإقليميّة أو القوميّة . . . أو أي اسم آخر، المهم أن

(1) يرى الشهيد مطهري أن المجتمعات الراكدة حضاريا تميل إلى احترام الساكن، ويمثّل لذلك بالقطار الذي يجتمع حوله الأطفال في محطة القطار، فينظرون إليه باحترام وهو ساكن، حتى إذا تحرّك رشقوه بالحجارة (انظر مرتضى مطهري. إحياء الفكر في الإسلام. ترجمة آذرشب). ولعلّ تقديس عامة الناس للعلماء الجامدين يحكي هذه الحالة أيضا.

يكون هناك تمزق يؤدي إلى حالة قهرية من الصراع والتراشق والقطيعة⁽¹⁾.

- 4 - ولعلّ أهمّ ما يميّز المجتمعات الرأكدة حضاريا - فيما يرتبط بموضوعنا - هو موقفها من التيارات الوافدة عليها من الخارج . وهو موقف يتراوح بين الإفراط والتفريط . إمّا أن يكون الموقف هو الرفض الكامل لكلّ هذه التيارات جملة باعتبارها تتعارض مع الأسس القائمة في المجتمع ، وإمّا الانبهار بهذه التيارات والشعور بالهزيمة تجاهها ، والدعوة إلى الأخذ بها جملة باعتبارها الوسيلة الوحيدة للسير في ركب الحضارة!⁽²⁾.

من مظاهر المجتمعات المتحركة حضاريا

وفي مقابل المظاهر التي ذكرناها للمجتمعات الساكنة فإنّ الأمر يتخذ في المجتمعات المتحضرة شكلا آخر .

- 1 - المجتمعات الحية تفكّر بحاضرها ومستقبلها دائما ، ولا تنظر إلى الأمر بأنّه ليس بالإمكان أحسن ممّا كان ، بل ترى أنّ الحركة التكاملية نحو الله لا نهاية لها ، وهذه الحركة ليست جغرافية مكانية ، بل هي حركة في جوهر الإنسان نحو كلّ

(1) انظر العلاقة بين الركود الحضاري ، وحالة التوقف عن الإبداع والفرقة النفسية والتحرّب الطائفي ، مقال الدكتور حسن حنفي ، المشروع الحضاري الجديد ، مجلة الوحدة ، الرباط ، العدد 105 ، ص 10 مارس 1994 .

(2) انظر : يوسف القرصاوي ، الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط ، القاهرة ، دار التوزيع والنشر ، صفحات 46 و 73 و 74 .

صفات الله من عزّة وكرامة وقوّة وعلم وجمال ورحمة، وترفض السكون وتتحرك باستمرار أفقياً لاكتشاف المجاهيل على ظهر الأرض، وتتحرك عمودياً لتتعمّق في ما وراء الظواهر الطبيعية والفكرية.

- 2 - الإصلاح في مثل هذه المجتمعات يتّجه نحو إزالة الموانع عن طريق حركة المجتمع سواء اتّخذت هذه الموانع صفة السلطة السياسية أو السلطة الدينية، وبذلك يفتح الطريق أمام استمرار مسيرة البشرية نحو تحقيق أهدافها المنشودة. وأهمّ قاسم مشترك بين الإصلاحيين الحقيقيين هو إعادة روح «العزّة» التي فقدتها الأفراد في ظروف معيّنة إلى المجتمع، ممهّدين بذلك لاستمرار المسيرة الحضارية⁽¹⁾.

- 3 - في المجتمعات الحيّة يسود الترابط العضويّ بين الأعضاء، وهذه ظاهرة كانت على أشدها في أيام ازدهار مجموعتنا الحضارية الإسلامية، فالخراسانيون يهبّون لنصرة الحلبيّين حين يداهمهم خطر، والمغاربة ينهضون لنصرة الأندلسيّين، والعلماء الخراسانيّون مرتبطون بمختلف تخصصّاتهم بعلماء بغداد والشام والمغرب والأندلس. والشاعر ينشد قصائده في القاهرة فتصل في نفس الأيام إلى بلاد فارس، فتداولها الألسنة، وتكتب الشروح والنقود. ومع عدم وجود حتى الحدّ

(1) لغة الإصلاحيين الحقيقيين تختلف لكنها تجتمع عند حقيقة واحدة هي استعادة العزّة للإنسان، حين تتضافر الظروف السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية لإنزاله، واستعادة العزّة يعني استعادة الحياة واستعادة الحركة الحضارية.

الأدنى من وسائل الارتباط القائمة اليوم كان العالم الإسلامي يشكل مجموعة الحضارية من أقصاه إلى أقصاه قرية كونية مترابطة فكرياً وعلمياً وعاطفياً وإنسانياً⁽¹⁾. وهذا لا يعني انعدام التعدديات المذهبية والفكرية والعلمية، لكنها كانت تعدديات متعاونة ومتعاضة، يعترف كل منها بفضل الآخر، ويتلمذ كل منها على الآخر، وتجلس جميعها في مجالس حوار علمي هادئ بناء رغم ما بينها من اختلاف⁽²⁾.

- 4 - أما الموقف من الآخر، فيقوم على قاعدة: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ (الزمر 18). الموقف هنا فاعل لا منفعل، يأخذ من الوافد ما يراه صحيحاً فيهضمه في وجوده ويتمثله في منظومته فيزداد قوة، دون أن يؤثر ذلك على هويته وشخصيته المستقلة. لقد انفتح العالم الإسلامي في نهضته على اليونان والفرس والهنود فأخذ من خزائهم مازاده قوة على قوته، وأخذ الأوروبيون في نهضتهم من المسلمين ما يعترف به كل منصف من الباحثين.



(1) كان المتنبي ينشد أشعاره في القاهرة والشام وبغداد فتصل في زمانه الى فارس، فيكتب عليها صاحب بن عباد نقداً، وتدور حولها ضجة أدبية (المتنبي في إيران، فصل من كتاب: العلاقات الثقافية الإيرانية العربية، الدكتور محمد علي أنرشب، دمشق، 2001. ص 109 وما بعدها).

(2) انظر على سبيل المثال مجالس البرامكة، ومنهم يحيى بن خالد الذي كان يجتمع في مجلسه الإمامي والخارجي والمعتزلي و... فيتباحثون في مختلف المسائل الكلامية (مروج الذهب، المسعودي، ج 3، ص 370 وما بعدها، ط 2، قم، دار الهجرة 1984م).

بعد أن أشرنا إلى أنّ مفهوم الاستخلاف يستبطن حركة حضارية، وهذه الحركة الحضارية تحلّ جميع الإشكاليات القائمة في المجتمعات الراكدة الساكنة بما في ذلك إشكالية ما يظهر من تناقض بين المحافظة على الثوابت وبين الانفتاح على الآخر، أقول إنّ من الواضح أنّنا نعيش ركوداً حضارياً، وهذا الركود الحضاريّ هو أساس هذه المواقف المختلفة في عالمنا الإسلامي من الآخر.

وأشير هنا أيضاً إلى ثلاثة مواقف في هذا المجال، هي موقف من يسمّون بالأصوليين، وموقف من يسمّون بالحدّاثيين، وموقف التجديدين.

الأصوليون

مفهوم الأصولية - إذا كان يعني العودة إلى الأصول التي اعتمد عليها المسلمون في عصر الرسالة الأول في حياتهم الفردية والاجتماعية - فذلك ممّا لا يجوز أن يرفضه مسلم مؤمن بكتاب الله وسنّة رسوله، وهذه الأصول هي التي أحيتهم وحرّكتهم على جميع ساحات الهدم والبناء، وجعلت منهم رواد العلم والمعرفة والتحرير وعزّة الإنسان وكرامته.

لكنّ الأصولية في عالمنا الإسلامي المعاصر قدّمت بعض أطيافها صورة متعصّبة غير صحيحة عن الإسلام ألخصّها نقلاً

عن واحد من أشهر دعاة الإسلام المعاصرين وهو الشيخ محمد الغزالي .

1 - النظرة التقديسية لنظام الخلافة، حتى ولو أدى ذلك إلى تأييد الاستبداد السياسي في تاريخنا الإسلامي وهذا ما رفضه الشيخ الغزالي إذ يقول:

«قلت لصديقي يحدثني عن التاريخ الإسلامي: إسمع يا أخي إن الأمويين والعباسيين والعثمانيين لم يقدموا لنا صورة صادقة للخلافة الإسلامية، وتتفاوت نسبة الدّامة في الصورة التي قدّموها تفاوتاً يسيراً! . . .»⁽¹⁾.

2 - تضخيم الخلافات المذهبية، ونسيان مساحات الاتفاق، وهذا أدى إلى ظهور انحرافات في سلوك بعض الجماعات والأفراد أوشك أن يضيّع الهدف الذي جاء من أجله الإسلام يقول الشيخ الغزالي:

«إنّ المتفق عليه كثير جدّاً، وإنّ التشبّث به وحده كافٍ للنّجاة. . . ولكنّ جماهير من الدهماء والأذكياء شغلّتها للأسفّ الخلافات العارضة، ولم تحسن استثمار ما انعقد عليه الإجماع، وكادت تضيّع الإسلام ذاته بهذا العوج الفكري. . .»⁽²⁾.

3 - التشبّث بالنصوص لإثبات العقيدة، وهذه مسألة جرّت الويلات على المسلمين، ولا تزال تؤدّي دورها المخربّ،

(1) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1997 م. ص 10 - 11 .

(2) دستور الوحدة الثقافية، ص 43 - 47 .

فحين انحسرت موجة الاعتزال العقلية عن العالم الإسلامي راح المنظرون يقدّمون العقيدة للمسلمين عن طريق الأخبار الظنية، ومنها أخبار الآحاد، «وقد كان لذلك أثر رديء في مسالك الأفراد والجماعات وخصوصا العوام وأشباههم»⁽¹⁾.

ويرى الشيخ الغزالي: «إن هذه المرويات (في مجال العقيدة) حبر على ورق عند رجال الإسلام مع ورودها في كتب السنن»⁽²⁾.

4 - عدم الانفتاح على الآخر، وهو ناتج عن تعصّب يرى صاحبه أنّه وحده على حقّ والآخر على باطل. ويرى الشيخ الغزالي أن هذه الحالة لم تكن قائمة بين الفقهاء المجتهدين على مرّ العصور فهم، وإن اختلفت آراؤهم، يحترم بعضهم بعضا، ويحترم حريته في مخالفته، وقد رأينا مالك بن أنس يرفض حمل الناس على مذهبه في كتاب الموطأ، ويقول: إنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم تفرّقوا في الأمصار وقد يكون لديهم ما فاته...»⁽³⁾.

5 - الانشغال عن عظام الأمور، وهذه حالة واضحة في طيف المتعصّبين. يقول عنها الغزالي: «ولم أر أناسا حبستهم الجزئيات وغلبتهم على رشدهم مثل صرعى التعصّب المذهبي عندنا...».

(1) دستور الوحدة الثقافية، ص 53.

(2) دستور الوحدة الثقافية، ص 58.

(3) دستور الوحدة الثقافية، ص 67 - 72.

ثمَّ يورد الشيخ الغزالي أمثلة من أولئك الذين نسوا مسؤولياتهم في الحياة وانشغلوا بالصغائر منها قوله: «سألني صيدلي عن حكم من أدرك الإمام راكعاً ولم يقرأ الفاتحة، أتسقط الركعة عنه أم يعيدها؟»

قلت: الجمهور على سقوط الركعة عنه، وهناك من يرى قضاءها، فاختر لنفسك ما يحلو.

قال: أعرف ذلك، ولكن أريد مناقشة من يرى عدم قضاء الركعة!

قلت له: ما جدوى ذلك عليك، ولماذا تتكلف ما لا تحسن وتترك ما تحسن؟ قال: ما معنى ما تقول؟ قلت: إنَّك صيدلي، وجميع الأدوية في دكانك من صنع الصهيونيين أو الصليبيين أو الشيوعيين، فإذا تركت أنت وزملاؤك هذا الميدان، ميدان صناعة الدواء، واشتغلت باللغو، أفتحسب ذلك يرفعك عند الله وعند الناس؟ إنَّك للأسف تسهم في سقوط الأمة وتجعلها غير جديرة بالحياة.

قال: إنني أبحث في حكم شرعي ولا أشتغل باللهو. قلت: الحكم الشرعي كما قرَّره أهل الذكر بين أمرين، خذ منهما ما شئت، ولا يجوز أن تحوّل الموضوع إلى لبّان يمضغه الفارغون. إنَّ كل ما يصرفك عن ميدان الدواء هو في حقيقته عبث أو عيب أو ذنب تؤاخذ به.

أمّا أن تؤلّف رابطة عنوانها: «جماعة من يقضون الركعة إذا لم تقرأ الفاتحة» فهذا سخف. ما قيمة هذا الرأي أو ذاك حتى يُحشّى به عقول الناس؟⁽¹⁾.

الحداثيون:

الحداثة أيضا إذا كانت تعني ما قاله «كانت» في كتابه «ما الأنوار»: هي تحرير العقل من الوصاية التاريخية التي فرضت عليه من الخارج، وأنّ شرط الحداثة هو الحرية، وأهمّها حرية العقل وحرية التفكير، كي يستطيع الإنسان أن يبني نهضته نحو الحضارة والحرية والمدنية والحداثة، فهي من صميم ما جاء به الإسلام. لأنّ جوهر دعوة الإسلام يقوم على نظرية الاستخلاف التي تستبطن كما قلنا عزة الإنسان وكرامته، ولا عزة ولا كرامة بدون حرية العقل وحرية التفكير... وهي ظاهرة كانت مشهودة تماما في عصر ازدهارنا الحضاري⁽²⁾.

أمّا الحداثيون في عالمنا الإسلامي اليوم فيتخذون مظاهر عديدة يجمعها الإصرار على القطيعة مع الدين، ذلك لأنّ الغرب لم يدخل عصر التنوير إلّا بهذه القطيعة. يقول أحدهم: «إنّه بعدما كان المسيحيّ حريصا على طاعة الله وكتابه، لم يعد الإنسان يخضع إلّا لعقله... فأيديولوجية التنوير قد أقامت

(1) دستور الوحدة الثقافية، ص 77 - 79.

(2) انظر عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض ط 1990، ص 15.

القطيعة الاستمولوجية (المعرفية) الكبرى، التي تفصل بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الاكويني (1225 - 1274) وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير... فمنذ الآن فصاعدا راح الأمل بمملكة الله يتزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته...».

وعلى طريق هذه القطيعة تعرض كل مقدس ديني لدى الحداثيين للتشكيك: (1).

1 - الذات الإلهية أصبحت عندهم هي «الأرض والخبز والحرية والعدل والعتاد والعدّة وصرخات الألم وصيحات الفرحة... والتوحيد ليس توحيد الذات الإلهية كما هو الحال في علم الكلام الموروث، وإنّما هو وحدة البشرية، ووحدة التاريخ، ووحدة الحقيقة، ووحدة الإنسان، ووحدة الجماعة، ووحدة الأسرة...».

2 - الأنبياء هم ظواهر إنسانية وثمرّة لقوّة «المخيّلة» الإنسانية، وليس فيها إعجاز ولا مفارقة للواقع وقوانينه. فالأنبياء مثل الشعراء والمتصوّفة مع فارق في درجة المخيلة.

3 - القرآن خطاب تاريخي لا يتضمّن معنى مفارقا جوهريا ثابتا، وليس ثمة عناصر جوهريّة ثابتة في النصوص.

(1) انظر إميل بولا: الحرية، العلمنة، منشورات سيرف، باريس. 1987؛ ونصر حامد أبوزيد: مفهوم النص. ط القاهرة 1990 م. وعبد المعطي حجازي في الاهرام بتاريخ 200/10/11. وأخبار الكتاب، العدد 37، سبتمبر 2000، نقلا عن الدكتور محمد عمارة، مستقبلا بين التجديد الإسلامي والحداثة الغربية، مجلة ثقافتنا، العدد 5-2005 م.

فالقرآن تحوّل من لحظة نزوله من كونه (نصّاً إلهياً) وصار فهماً (نصّاً إنسانياً) لأنّه تحوّل من التنزيل إلى التأويل .

- 4 - واللغة العربية هي لغة ميّنة ودخيلة في رأي الحداثيين

العرب وغير العرب .

- 5 - والتّاريخ يجب أن تكون المحورية فيه لتاريخ أوروبا

وأبطال أوروبا، ولابدّ من تزيين الساحات العربية بتمائيل الاسكندر الأكبر (356 - 324 ق.م) .

وأمثال هذه الأقاويل التي يجمعها عنوان الهزيمة النفسية

أمام الغرب الغالب .

وقفة عند المتعصّبين والحداثيين

ذكرنا أنّ المشكلة الأساسية في عالمنا الإسلامي هي غياب مفهوم «الاستخلاف» ويستبطن ذلك غياب مفهوم العزّة والمثل الأعلى الكبير، ويستبطن كذلك استفحال الذاتيات .

هذه الذاتيات تتخذ مظاهر عديدة . فهي في المجال السياسي تظهر عندنا في التهافت على الكراسي والمناصب مهما كلف الثمن . وتظهر في المجال الفكري بالتشبث بالفكر الصّدّاميّ المتعارض مع سنن الحياة والفطرة سواء المتعصّب منها المتنكّر لسنة التطوّر، أو الحداثيّ الرافض لثوابت الكون والإنسان .

الشيخ الغزالي عند حديثه عن المتعصّبين لا يفوته أن يشير

إلى الحالة المرضية النفسية لهذا التعصّب، وأنّه ناتج عن الذاتية والأناية يقول:

«والاغترار بالنفس أو الدوران حول الذات لا يبدو في طلب الرئاسة بالأساليب القذرة وحسب، كلا، إنّهُ يبدو في تنقّص رجل معروف، أو اعتناق رأي شاذ، أو المكابرة في حوار، أو ما شابه ذلك من مواقف لأناس يعملون في الميدان الديني أو الميدان المدني على السواء...»⁽¹⁾.

هذه إشارة هامة إلى دور الذاتية في المواقف المتطرّفة، سواء كانت رافضة للواقع والمستقبل باسم الأصولية أو رافضة للماضي باسم الحداثة.

التجديديون

التجديد كان قائما على مرّ التاريخ الإسلامي، خاصّة في عصر الحركة الحضارية، نرى ذلك التجديد في الفقه والأصول والتفسير والحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية، الاجتهاد، وشيوع حديث ظهور المجدّدين على رأس كل قرن، من مظاهر هذا التجديد المستمر.

وكان من المفروض في عصر الركود الحضاري أن لا تظهر في العالم الإسلامي مشاريع تجديدية، غير أنّ الإسلام بما فيه من طاقات ذاتية يأبى على أتباعه الخضوع للوضع القائم، ويثير

(1) دستور الوحدة الثقافية، ص 141.

فيهم الهمّة للإصلاح والتجديد، من هنا نرى قائمة المجدّدين في عصرنا غنية بالأسماء والمشاريع النظرية والعملية.

لقد كان على رأس المجدّدين في عصرنا السيد جمال الدين الأسد آبادي المعروف بالأفغاني، وقد قدّم هو وتلميذه، محمد عبده مشروعا للتجديد، خير من درسه الأستاذ محمد عماره ألخصه فيما يلي: ⁽¹⁾

1 - نقد الجمود والتقليد ورفضهما: سواء أكان هذا التقليد للسلف وجمودا على تراثهم، أم تقليد الغرب والجمود على الثقافة الحديثة للتغريب.

2 - التجديد الذي يؤدي إلى تحرير الفكر من القيود، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارف الدين إلى ينابيعها الأولى، واعتبار الدين من ضمن موازين العقل البشري، وإصلاح أساليب اللغة العربية، والتميز بين ما للحكومة من حقّ الطاعة على الشعب، وما للشعب من حقّ العدالة على الحكومة.

3 - الإصلاح بالإسلام، لا بالمشاريع الغربية على البيئة الإسلامية.

4 - الوسطية الإسلامية التي برئت من الغلو والإغراق في المادية، أو في الروحانية.

5 - العقلانية المؤمنة التي تجمع بين العقل والنقل.

(1) ملخص من مقال الدكتور عمارة، مستقبلا بين التجديد الإسلامي والحدثة الغربية (مقال مذكور) ص 47 - 54.

- 6 - الوعي بسنن الله الكونية التي تحكم عوالم المخلوقات، وجعل هذه السنن علما من العلوم المدوّنة.
- 7 - الدولة في الإسلام مدنية - إسلامية، لا كهنوتية ولا علمانية.
- 8 - الشورى، أي مشاركة الأمة في صنع القرارات.
- 9 - العدالة الاجتماعية التي تحقّق التكافل الاجتماعي بين الأمة كلها.
- 10 - إنصاف المرأة لتشارك الرجل في القيام بفرائض وتكاليف العمل العام.
- ثمّ من مشاريع التجديد الحديثة مشروع حسن البنّا تحت عنوان: «أصول للمّ الشمل بين المسلمين» قدّمه في عشرين أصلا وأضاف إليه الشيخ محمّد الغزالي عشرة أصول.

أصول الإمام حسن البنّا للمّ شمل المسلمين

الأصل الأول: الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا، فهو دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوّة ورحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء.!!

الأصل الثاني: القرآن الكريم والسنة المطهّرة مرجع كلّ مسلم في تعرّف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد

اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة إلى رجال الحديث الثقة.

الأصل الثالث: للإيمان الصادق، والعبادة الصحيحة والمجاهدة، نور وحلاوة يقذفها الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى، ليست من أدلة الأحكام الشرعية... ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

الأصل الرابع: التماثل والرقى والودع والرمل والمعرفة والكهانة وأدعاء معرفة الغيب - المستقبل - وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته... إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة.

الأصل الخامس: رأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدّة، وفي المصالح المرسلة، معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، والأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي المعاملات الالتفات إلى الأسرار والحكم والمقاصد.

الأصل السادس: كلّ أحد يؤخذ من كلامه ويُترك إلاّ المعصوم - صلى الله عليه وسلم - وكلّ ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم موافقا للكتاب والسنة قبلناه، وإلاّ فكتاب

الله وسنة رسوله أولى بالاتباع . ولكننا لا نعرض للأشخاص
فيما اختلفوا فيه بطعن أو تجريح ، ونكلهم إلى نياتهم ، وقد
أفصوا إلى ما قدموا» .

الأصل السابع : لكلّ مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة
الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين ويحسن به مع هذا
الاتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلة إمامه ، وأن يتقبل
كلّ إرشاد مصحوب بالدليل متى صحّ عنده صدق من أرشده
وكفايته ، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم
حتى يبلغ درجة النظر .

الأصل الثامن : الخلاف الفقهيّ في الفروع لا يكون سببا
في التفرّق في الدين ، ولا يؤدي إلى خصومة أو بغضاء ، ولكلّ
مجتهد أجره ، ولا مانع من التحقيق التّزيه في مسائل الخلاف
في ظلّ الحبّ في الله ، والتعاون على الوصول إلى الحقيقة ، من
غير أن يجرّ ذلك إلى المراء المذموم أو التعصّب .

الأصل التاسع : كلّ مسألة لا ينبنى عليها عمل فالخوض
فيها من التكلّف الذي نهينا عنه شرعا ، ومن ذلك كثرة
التفريعات للأحكام التي لم تقع ، والخوض في المعاني القرآنية
التي لم يصل إليها العلم بعد ، والكلام في المفاضلة بين
الأصحاب رضوان الله عليهم ، وما جرى بينهم من خلاف ،
ولكلّ منهم فضل صحبته ، وجزاء نيّته ، وفي التأويل مندوحة .

الأصل العاشر : معرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده .
وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام . وآيات الصفات وأحاديثها

الصحيحة، وما يلحق بذلك من التشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله وأصحابه ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران 7).

الأصل الحادي عشر: كل بدعة في دين الله لا أصل لها، استحسناها الناس بأهوائهم - سواء بالزيادة فيه أو النقص منه - ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها.

الأصل الثاني عشر: البدعة الإضافية والتركية والالتزام بهما في العبادات المطلقة، خلاف فقهي لكل فيه رأي، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان.

الأصل الثالث عشر: محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب عملهم قرينة إلى الله تبارك وتعالى. والأولياء هم المذكورون في قوله سبحانه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: 63) والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، في حياتهم أو بعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

الأصل الرابع عشر: زيارة القبور آيا كانت سنة، وهي مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبرين - آيا كانوا - ونداءهم لذلك، وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو

بعد، والنذر لهم، وتشديد القبور، وسترها، وإضاءتها،
والتمسح بها، والحلف بغير الله، وما يلحق ذلك من المبتدعات
كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سداً للذريعة.
الأصل الخامس عشر: الدعاء إذا قُرن بالتوسّل إلى الله
بأحد خلقه موضع خلاف فرعي في كيفية الدعاء، وليس من
مسائل العقيدة.

الأصل السادس عشر: العرف الخاطئ لا يغيّر حقائق
الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكّد من حدود المعاني المقصود بها
اللفظ والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي
في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسمّيات لا بالأسماء.
الأصل السابع عشر: العقيدة أساس العمل، وعمل القلب
أهمّ من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب
شرعاً، وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

الأصل الثامن عشر: الإسلام يحرّر العقل، ويحثّ على
النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح.
والنافع من كل شيء و«الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو
أحقّ الناس بها».

الأصل التاسع عشر: قد يتناول كلّ من النّظر الشرعي
والنّظر العقلي ما يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا في
القطعي، فلن تصطدم حقيقة صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة،
ويؤوّل الظنيّ منهما ليتّفق مع القطعيّ، فإن كانا ظنيين فالنظر
الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقليّ أو ينهار.

الأصل العشرون: لا نكفر مسلماً أقرّ بالشهادتين وعمل بمقتضاهما، وأدّى الفرائض برأى أو بمعصية إلا إن أقرّ بكلمة الكفر، أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا يحتمل تأويله إلا الكفر.

الأصول العشرة الإضافية المقترحة من قبل الشيخ محمد الغزالي⁽¹⁾.

1 - النساء شقائق الرجال، وطلب العلم فريضة على الجنسين كليهما، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وللنساء في حدود الآداب الإسلامية - حق المشاركة في بناء المجتمع وحمايته.

2 - الأسرة أساس الكيان الخلقي والاجتماعي للأمة، والمحضن الطبيعي للأجيال الناشئة، وعلى الآباء والأمهات واجبات مشتركة لتهيئة الجو الصالح بينهما. والرجل هو رب الأسرة ومسؤوليته محدودة بما شرع الله لأفرادها جميعاً.

3 - للإنسان حقوق مادية وأدبية تناسب تكريم الله له، ومنزلته الرفيعة على ظهر الأرض، وقد شرح الإسلام هذه الحقوق ودعا إلى احترامها.

4 - الحكام - ملوكا كانوا أم رؤساء - أجراء لدى شعوبهم، يرعون مصالحها الدينية والدنيوية، ووجودهم مستمد من هذه الرعاية المفروضة، ومن رضا السواد الأعظم بها،

(1) دستور الوحدة الثقافية، ص 185 - 186.

وليس لأحد أن يفرض نفسه على الأمة كرها، أو يسوس أمورها استبدادا.

5 - الشورى أساس الحكم، ولكلّ شعب أن يختار أسلوب تحقيقها، وأشرف الأساليب ما تمحّض لله، وابتعد عن الرياء والمكاثرة والغشّ وحبّ الدنيا.

6 - الملكية الخاصة مصونة بشروطها وحقوقها التي قرّرها الإسلام، والأمة جسد واحد لا يُهمل منه عضو، ولا تُزدرى فيه طائفة، والأخوة العامة هي القانون الذي ينتظم الجماعة كلّها فردا فردا، وتخضع له شؤونها المادية والأدبية.

7 - أسرة الدول الإسلامية مسؤولة عن الدعوة الإسلامية، وذود المفتريات عنها، ودفع الأذى عن أتباعها حيث كانوا، وعليها أن تبذل الجهود لإحياء الخلافة في الشكل اللائق بمكانتها الدينية.

8 - اختلاف الدّين ليس مصدر خصومة واستعداد، وإنّما تنشب الحروب إذا وقع عدوان أو حدثت فتنة أو ظلمت فئات من الناس.

9 - علاقة المسلمين بالأسرة الدولية تحكمها موثيق الإخاء الإنسانيّ المجرد، والمسلمون دعاة لدينهم بالحجّة والإقناع فحسب، ولا يضمرون شرّاً لعباد الله.

10 - يسهم المسلمون مع الأمم الأخرى - على اختلاف مذاهبها - في كل ما يرقى ماديا ومعنويا بالجنس البشري، وذلك من منطلق الفطرة الإنسانية والقيم التي توارثوها عن كبير الأنبياء

محمد عليه الصلاة والسلام.

وفي اعتقادي أنّ المشروع الإحيائي الذي ظهر مع التحوّل الإسلامي في إيران يعتبر من المشاريع النظرية والعملية التي غابت عن دراسة الدارسين بسبب الظروف السياسية الدولية والإقليمية الضاغطة ويستحقّ دراسة موضوعية بكلّ إيجابياته وسلبياته.

ومع كل هذه المشاريع التجديدية تبقى مظاهر الفعل والانفعال ومظاهر الإفراط والتفريط في المواقف قائمة حتى تحين الفرصة للمسلمين كي يستعيدوا دورهم الحضاريّ على الساحة التاريخية، عندئذ تأخذ الثوابت مكانها المناسب ويتّجه الجانب المتطوّر نحو تكامل الأمة في جميع مجالاتها الحياتية.

